

وسائل الاتساق: دراسة تطبيقية (نص من كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع أنموذجا)

مسعودة سليمان

جامعة مولود معمري، تيزي وزو، slimanimesaouda@yahoo.fr

التّشّر: 2020/10/20

القبول: 2020/09/07

الاستلام: 2019/07/18

الملخص: يهدف نحو النصّ إلى تجاوز وصف قواعد إنتاج الجمل إلى وصف قواعد إنتاج النّصوص بمختلف أنواعها لأنّ النّصوص هي وسيلة التواصل الحقيقية لا الجمل المنعزلة. لذلك تعتبر وسائل الاتساق من أهم الأمور التي يمكن أن تعالج في هذا المجال خصوصا إذا كانت الدراسة تطبيقية. وهذا ما تطرّق إليه موضوع هذا المقال حيث قمت بدراسة وسائل الاتساق من إحالة وحذف واستبدال وغيرها في مدونة من اختياري (نصّ من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع) مبيّنة كيفية أدائها لدورها الرابطي، وكيف تكون طريقة استعمالها سببا في ظهور الفروق الأسلوبية بين منتجي النّصوص.

الكلمات المفتاحية: النصّ؛ وسائل الاتساق؛ نحو النصّ؛ الترابط.

Means of consistency: applied study (A text from the book of Calila and Dimna by Ibn al Muqafa as o model)

Abstract: The aim of the textgrammar is to go beyond the description of the rules of production of sentences to describe the rules of the production of texts of various kinds because texts are the means of communication, not

المؤلف المرسل: مسعودة سليمان، slimanimesaouda@yahoo.fr

real isolated sentences. This new approach has had a great resonance in the field of language education after it has achieved the inability of learners to produce complete texts that are consistent and harmonious. Therefore, consistency is one of the most important things that can be addressed in this field, especially if the study is applied. This is the subject of this article, where

I studied the means of consistency of referral, deletion, substitution and others in the code of optional (text from the book KalilawaDimna of IbnAlmqafaa) showing how to perform its role of the association, and how to be used cause the emergence of stylistic differences between the producers of texts.

Key words: Text; means of consistency; towards text; interdependence.

مقدمة: بُنيت في نحو الجملة السابق لنحو النص وصف الأبنية اللغوية مع غياب الاهتمام بالجوانب الدلالية التواصلية، فكانت مهمة نحو النص تجاوز قواعد إنتاج الجمل إلى قواعد إنتاج النصوص. لذا وجب أن يكون هذا النحو الجديد إعادة بناء شكلية للكفاءة اللغوية في إنتاج ما لانهاية من النصوص اللغوية، ولا يعني هذا طبعاً الاستغناء عن نحو الجملة، وإنما النحوان مترابطان متكاملان. لكن الدراسات وإن كثرت في مجال نحو النص فكان ذلك في جانبه النظري، أما التطبيق فهو قليل جداً رغم أهميته. لذا ارتأيت تقديم هذه الدراسة التطبيقية لعلها تساهم في تعريف القارئ بهذا الجانب الهام من الدرس النحوي واخترت لذلك مدونة* تكشف عن توظيف صاحب النص لوسائل الاتساق وكيفية أدائها لوظيفتها الرابطة.

1. تعريف الاتساق: يرجع الاتساق في معناه اللغوي إلى معانٍ عديدة كالجمع والتّمام والتّكامل، فـ «اتّسق، أي: اجتمع. واتّسق الأمر، أي: تمّ وتكامل»¹ أمّا في الاصطلاح فيعرفه محمد الخطابي بأنه «ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص أو خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكوّنة لجزء من خطاب أو خطاب برمته»². ويعتبر الاتساق من المعايير التي تحدد نصية النص وكثيراً ما يستعمل جنباً إلى جنب مع مصطلح الانسجام. ويرى دي بوجراند (De Beagrand) أنه «من المفيد أن نميّز بين الاتساق باعتباره نصية قائمة على الصياغة والانسجام باعتباره نصية قائمة على نقل

المعلومات³» حيث يكون الاتساق على المستوى السطحي للنص أي على مستوى التشكيل البنوي للنص (البنية الصغرى) ويتحقق من خلال أدوات نحوية، ويكون الانسجام في المستوى العميق للنص أي مستوى بنية المفاهيم والتصورات (البنية الكبرى) ويتحقق من خلال وسائل دلالية، فمثلما يتعدى نحو النص نحو الجملة يتعدى التماسك الدلالي الترابط النصي. وترتبط الوحدات النصية فيما بينها بواسطة علاقات نحوية بينها ترتبط التصورات الكلية على مستوى البنية الكبرى بعلاقات التماسك الدلالية والمنطقية. وقد وضع عمل هاليداى (halliday) ورقية حسن (Rukiahassan)(cohesion in english) عماد نظرية هامة لتحليل الاتساق، وتبعضهم في ذلك الكثير من العلماء أمثال كوفوينسكي (Guvwinsky) وأولاستمان (Olaostman) «وقد وصفت محاولات فان دايك بوجه عام بأنها محاولات متقدمة إلى حد بعيد في شرح عمليات الترابط التحويلي بين المستويات النصية، والتماسك (الدلالي) بين الأبنية النصية الكبرى ودور القراءة والتأويل⁴». ووسائل الاتساق متعددة سنتعرض إليها بتتبع وجودها في النص المدروس:

(مدونة البحث: نص من كتاب " كلیلة ودمنة " لعبد الله بن المقفع (باب السائح والصائغ) من ص301 إلى ص 303، ينظر ملحق هذا المقال).

2- وسائل الاتساق:

1.2/ الإحالة: يعرف دي بوجراند الإحالة بأنها « العلاقة بين الألفاظ والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يدلّ عليه بالمعوضات في نص ما، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى عالم النص نفسه⁵ ». وهي من أهم عناصر الاتساق، وتخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين المحيل والمحال إليه. وعناصر الإحالة نوعان:

* نصية endophora تحيل إلى أشياء داخل النص، وتنقسم إلى إحالة قبلية anaphora وإحالة بعدية ataphora.

* مقامية exophora تحيل إلى أشياء خارج النص.

ووسائل الاتساق الإحالية أيضا متعددة هي:

أولا: الضمائر: وهي تحيل إحالة قبلية (إحالة إلى عنصر سابق) أو إحالة بعدية (إحالة إلى عنصر لاحق)، ولا تفهم إلا بالمحال إليه ولها تقسيمات عدة كتقسيمها إلى ضمائر الحضور

(المتكلم المخاطب) وضماير الغياب، وتقسيمها إلى ضماير وجودية (أنا، نحن، أنت، هو...) وضماير ملكية (كتابي، كتابك، كتابه...).

وقد لخصت العملية الإحصائية لضماير المدونة في الجدول الآتي:

الضمائر	ضمائر ملكية متصلة		ضمائر وجودية خاصة بالغائب				
	خاصة بالغائب		متصلة				
	هـ	هم	هـ	هم	و	ها	ي
	21	04	13	05	04	01	01
عدد التكرارات	25		24				
			26				

الملاحظ من الجدول سيطرة ضماير الغائب على النص سواء أكانت ضماير وجودية أو ضماير ملكية، وغابت في النص الضماير الوجودية وضماير الملكية الخاصة بالمتكلم والمخاطب تماما، وهذا راجع إلى طبيعة النص، فإنّ الفيلسوف بيدبا يمهد للملك ديشليم للإجابة عن طلبه (فاضرب لي مثلا في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه) بخلاصة تجربته المليئة بالحكمة والخبرة بأحوال الناس وطبائعهم.

ولأنّ الفيلسوف بدأ كلامه بـ (ليس ممّا خلقه الله في الدنيا ممّا يمشي على أربع أو على رجلين...هو أفضل من الإنسان)، ولأنّنا نحيل إلى الإنسان بالضّمير الغائب المذكر المفرد غلب على النصّ هذا الضّمير. وقد شكّل الضّمير (هـ) في (أوفى منه) بؤرة مركزية تعود إليه كلّ الإحالات الضّميرية القبلية العائدة على الإنسان إلى نهاية النصّ:

(ما هو أوفى منه حرمة ~~حتمل~~ ~~هوائه~~ ~~هوائه~~ ومودته ~~وهو~~ ...)

وهذا ممّا يسهم في التحام أجزاء النصّ واتّساقها « وبناء النصّ على هذا الشكل واعتماده على ضمير شخصي غير متحوّل بهذا القدر يبيّن قدرة الضّمير على تطويع الجزئيات المتناثرة التي كانت أفكارا مجردة بعيدة عن الترويض والتّواصل وجعلها نسجا واحدا منظّما»⁶ فإنّ الضّمير لم يتحوّل إلى صيغة المخاطب أو المتكلم. وما عدد تكرارات الضّمير (25+26) إلّا دليل على اعتماد الكاتب الكبير على الضّمير في عملية الاتّساق.

ثانياً: أسماء الإشارة: لا تفهم أسماء الإشارة أيضاً إلا إذا ربطت بها تشير إليه متقدماً عنها كان أو متأخراً. ويتميز اسم الإشارة المفرد بالإحالة الموسعة، أي بإمكانه الإحالة على جملة أو متتالية من الجمل كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: 63-64] حيث يحيل اسم الإشارة (ذلك) على جملة (إني نسيت الخوت). وتنقسم إحالة اسم الإشارة حسب المدى الفاصل بينه وبين المحال عليه إلى: إحالة ذات مدى قريب، وتكون في مستوى الجملة الواحدة، وإحالة ذات مدى بعيد، وتكون بين الجمل المتصلة أو المتباعدة في النص.

تكرر في النص اسم الإشارة (ذلك) خمس (5) مرّات، وقد أحال إلى مجموعة من الجمل إحالة قبلية مؤدياً دور الرابط بينها وبين الجمل التالية لها تجنباً للتكرار. ومثال ذلك من النص: (يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ولا يضعوه عند من لا يحتمله، ولا يقوم بشكره، ولا يصطنع أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه والمعرفة بوفائه ومودته وشكره، ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريباً لقربته)، ففي قوله: (بذلك) تجنب لتكرار قوله (بوضع معروفهم ... وشكره). وهنا إحالة موسعة قام فيها اسم الإشارة بالربط بين هذه الجمل والجمل اللاحقة لها.

ثالثاً: المقارنة: وتقوم على طرفين يقوّي أحدهما الآخر، وتنقسم إلى عامّة وخاصّة أما العامّة فتتفرّع إلى المطابقة (مثل...)، والتشابه (يشبه...)، والاختلاف (مختلف عن...)؛ وأما الخاصّة فتتفرّع إلى كمية (أكثر...)، وكيفية (أجمل...).

ويعتبر (هاليداي) و(رقية حسن) أول من عدّ المقارنة نوعاً من أنواع الإحالة بنوعيهما القبلية والبعدية، وكان ذلك راجعاً إلى «خصوصية في اللغة الإنجليزية أوهمت بذلك، وإن تجاوزنا خصوصية هذه اللغة لاحظنا أنّ الإطار الأنسب لتناول مظاهر الرّبط هذه ليس عملية المقارنة في حدّ ذاتها وإنما ما يصحبها من عمليات أخرى تعود أساساً إلى الإضمار والحذف»⁷ وفعلاً هذا ما جاء في النحو العربي لما عُولِجت ظاهرة المقارنة في باب التّفضيل.

وقد وردت صيغة اسم التّفضيل في النص في (شيء أفضل من الإنسان ... أوفى منه ... أشدّ محاماة ... أشكر للمعروف ... أقوم به) وهي إن جاز إدراجها ضمن المقارنة فهي مقارنة خاصّة (كيفية).

2.2/ الاستبدال: ومعناه إحلال عنصر مكان عنصر آخر، ومعظم حالات الاستبدال النسي قبلية، أي علاقة بين عنصر لاحق وعنصر سابق. وقد قسمته هاليداي ورقية حسن حسب وظائفه التركيبية إلى ثلاثة أقسام هي:

أولاً: الاستبدال الاسمي: وهو مجموعة الأقوال الاسمية التي يمكن أن تعوض الاسم وتؤدي وظيفته التركيبية مثل: واحد، واحدة، آخر، أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 3]. فقد عوضت كلمة (واحدة) كلمة (امراة).

ثانياً: الاستبدال الفعلي: وهو مجموع الأقوال الفعلية التي يمكن أن تحل محل الفعل وتؤدي وظيفته التركيبية، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَحْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَعْلَمْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1]. فقد حلت كلمة (يفعل) محل (لا تتخذوا عدوي...تسرون إليهم بالمودة).

ثالثاً: الاستبدال القولي: وهو مجموع الأقوال التي يمكن أن تشغل محل قول ما وتؤدي وظيفته التركيبية، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُفْرِّينَ﴾ [الشعراء: 41 - 42]، فقد عوضت كلمة (نعم) قول فرعون (إن لكم أجراً إن كنتم الغالبين).

وقد لوحظ في النص غياب حالات الاستبدال بكل أنواعه الاسمي والفعلية والقولي، وهذا أمر عادي باعتبار صغر المدونة من جهة، وعدم لجوء صاحب نص ما إلى كل وسائل الاتساق في كتاباته من جهة أخرى، ومن هنا تظهر الخصائص الأسلوبية التي تميّز كاتباً عن آخر.

3.2/ الحذف: ويقصد به إزالة عنصر من التركيب اللغوي لتقدم ذكره، والمحذوف مرتبط بما قبله ارتباطاً شديداً لا يفصل عنه مطلقاً ولا يفهم إلا به. والحذف « بابٌ دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين⁸ » وعن ذلك يقول ابن جني: « واعلم أن العرب - مع ما ذكرنا - إلى الإيجاز أميل، وعن

الإكثار أبعد. ألا ترى أنها في حال إطالتها وتكريرها مؤذنة باستكراه تلك الحال وملا لها⁹ ويظهر أن (ابن جني) يتكلم هنا عن التّطويل لا الإطناب.

والحذف نوعان:

*حذف جملة، وهو ما كان أثره الدلالي أو ارتباطه المرجعي في حدود الجملة الواحدة.
*حذف نص، وهو ما كان أثره الدلالي وارتباطه المرجعي يتعدى الجملة الواحدة إلى جملة ثانية أو أكثر.

وفي النص حذفان:

*حذف جملة: وكان بالاعتماد على حرف العطف تجنّباً للإطالة، وكان ذلك بحمل الصّغ على تقدير العامل فتشترك في الحكم الإعرابي، وعليه يغني موقعها عن تكرار ما جعل الكلمة تكون بذلك الإعراب أي تكرار العامل. ومثالا ذلك من النص يوضحهما الجدول الآتي:

المثال	تفسير المحذوف	الصلة بين المحذوف والقربة الدالة عليه	صلة المحذوف بالمرجعية
المعرفة بوفائه ومودته	المعرفة بوفائه والمعرفة بمودته	الاشتراك في المعنى والحكم	سياق نصي
لا ينبغي لذي عقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً	...أن يحتقر صغيراً أو يحتقر كبيراً	الاشتراك في المعنى والحكم	سياق نصي

*حذف نص: وقد جاء هذا بتنوين العوض عن جملة محذوفة أو أكثر في (حينئذٍ) ومنه: (ولا أن يمنعوهم معرفهم ورفدهم للبعيد، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه: لأنه يكون حينئذٍ عارفاً بحقٍ ما اصطنع إليه مؤدياً لشكر ما أنعم عليه...).

وتقدير المحذوف: . لأنه يكون حينئذٍ يقيهم بنفسه وما يقدر عليه عارفاً بحقٍ ما اصطنع إليه...
.....

وكذلك قوله: (لأنّه في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشدّ محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذٍ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن...) وتقدير المحذوف: ... وحينئذٍ يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة وأشدّ محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به، يجب على الملوك ...

4.2/العطف: تتمثل حروف العطف في: الواو، الفاء، ثم، حتى، أو، أم، أمّا، بل، لكن لا. وتأتي حروف العطف لأمن اللبس في فهم الاتصال كقولنا: (دخل أحمد وخرج علي) حيث قامت واو العطف بالربط بين دخول أحمد وخروج علي ربطاً ما كان ليكون إن حذفت الواو. « وأثر العطف لا ينحصر في تحقيق التماسك على مستوى الجزء من الكلام وإنما يتوزع على مستوى الجملة وأحياناً على مستوى الجمل، وأحياناً على مستوى الفقرات، وأحياناً على مستوى النصوص¹⁰ ». ويفرق مصطفى حميدة بين الربط والارتباط قائلاً: « ذلك أن الارتباط علاقة معنوية بحتة تنتج عنها علاقات سياقية نحوية تنشأ بين المعاني الوظيفية دون اللجوء إلى أداة، لأن كل علاقة منها علاقة وثيقة¹¹ » مثل علاقة الفعل بالفاعل والمفعول به، والصفة بالموصوف، والتوكيد بالموكّد؛ وعن هذا يقول عبد القاهر الجرجاني: « واعلم أنه كما كان من الأساء ما يصله معناه بالاسم قبله فيستغني بصله له عن واصل يصله وربطه وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالموكّد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها¹² » وقد عولج الربط عند البلاغيين العرب القدامى تحت مبحث الفصل والوصل.

غلب على النص تكرار حرف العطف (و) ست وثلاثين مرة (36) وشاركه في أداء دوره الرابطي حرفا العطف (ف) و (أو) ولكن بتكرار محتشم (مرتان لكل حرف).

ومن ذلك في النص: (ومع ذلك ربّما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله في طبائعه فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة)

5.2/الاتساق المعجمي: إن الطريقة التي تنتظم بها الوحدات المعجمية تتحكم في كثير من الأحيان في إنتاج الدلالة التركيبية، حيث تنتقل كل كلمة من دلالتها المعجمية الذاتية إلى دلالة جديدة يحددها اجتماعها مع الكلمات الأخرى في السياق اللغوي. وللاتساق المعجمي ثلاثة مظاهر:

أولاً: التكرار: ويكون على أربعة أشكال:

- التكرار التام: وهو إعادة ذكر اللفظ والمرجع واحد.

- التكرار الجزئي: وهو إعادة استخدام الجذر اللغوي استخداماً مختلفاً (بسط، يبسط، انبساط...)

- تكرار المعنى واللفظ مختلف، ويتمثل في الترادف والعبارة الموازنة كقولنا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

- التوازي: ويعني نوعاً من التشابه، فلا تطابق مطلق ولا تمايز تام، حيث تعاد البنية اللغوية مع ملئها بعناصر جديدة، مثل: أريدك شجاعاً مقداماً، وأريدك حكيماً حليماً، وأريدك صادقاً وفياً.

نجد في النص التكرار الجزئي في (أشكر، شكره)، (أوفى، وفائه)، (قريباً، قربته) والتكرار التام لـ (المعروف، شكر، عاقل، معرفة...)، وتكرار المعنى واللفظ مختلف (اختبار، يبلوهم)، (حذر، لم يأمن) وإن كانت الصيغ الصرفية مختلفة. كما نجد التوازي في قوله: (عارفاً بحق ما اصطنع إليه، مؤدياً لشكر ما أنعم عليه)، وفي (محموداً بالنصح، معروفاً بالخير). وكل هذه الأنواع من التكرار تسهم في الاتساق النصي بربط الجزء السابق منه بالجزء اللاحق بتكرار اللفظ والمرجع واحد أو بتكرار المعنى أو الجذر اللغوي فقط أو بتكرار البنية خصوصاً مع الجرس الموسيقي الذي يصحب تكرار نفس الأصوات أو نفس البنية (الوزن).

ثانياً: المصاحبة المعجمية: وهي ورود مفردات مجتمعة بشكل مطرد أو «توارد زوج من الكلمات أو أكثر بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطهما بهذه العلاقة أو تلك، وتكون هذه المفردات رائزاً لدرجة الترابط الذي هيمنت عليه مقصدية المتكلم وأوضاع المخاطبين ومقتضيات الأحوال وجنس الخطاب¹³». ويكون تداعي الوحدات المعجمية على وجهين: أحدهما التقابل، مثل: الليل والنهار والأسود والأبيض، وثانيهما التراكم والتكامل، مثل: الأب والأطفال، الطفلة والمرأة، الشعر والشاعر.

والمصاحبة المعجمية تفيد في فهم النص من خلال ما سبّاه البلاغيون بالمشكلة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27]

فالأخوة هنا في غير الولادة ومن ذلك « كَانَتْ المشاكلة والاجتماع في الفعل ، كَقَوْلِكَ: هَذَا الثُّوبُ أَحْوَ هَذَا¹⁴ » أي يشبهه.

وقد وردت في النَّصِّ أزواج متباينة: (البَرّ، الفاجر)، (قريب، بعيد)، (صغير، كبير) فقد تداعت الوحدات المعجمية بالتقابل، كما تداعت بالتراكم والتكامل في قوله: (البهائم والسباع والطير). كما نجد في النَّصِّ المصاحبة المعجمية بتوارد كلمات بشكل قوي كـ (خلق، الله)، وقد عمل المخاطب إلى توظيف مخزونه الثقافي بموضوعية قصد الإبلاغ بترتيب معين للوحدات المعجمية.

ثالثاً: الألفاظ المعبرة عن علاقات التضمن: مثل العام والخاص، والجزء والكلّ والمجموعة والعنصر. فوقع الألفاظ ذوات هذه العلاقات في موقعها المناسب يزيد في الاتساق المعجمي.

نجد في النَّصِّ كلمة (النَّاس) قد تضمنت جميع المتحدث عنهم، صغيرهم وكبيرهم غنيهم وفقيرهم، رجالهم ونساءهم... كما تضمنت كلمة (الطير) كل أنواع الطيور، والأمر نفسه مع السباع والبهائم.

2-6/ التعريف والتّكبير: وهما خاصيتان ترتبطان بالاسم فقط دون الجمل، لذا يمكننا السؤال عن دورهما في الرّبط بين جمل النَّصِّ. وقد اعتبرت الدراسات اللسانية المختلفة أنّ بعض أنواع التعريف يسهم في الاتساق النصي وبعضها الآخر لا يفيد في ذلك. و« مدخل التعريف والتّكبير قائم على المعهود وغير المعهود، وهي ظاهرة لا تتصوّر إلّا عند الإجراء، أمّا قبله فإنّ جميع الأسماء متساوية في الدلالة على معانيها الوضعية، وهو ما يمكن أن نسمّيه بالدلالة الناتجة عن التسمية الوضعية»¹⁵ بمعنى أنّ التعريف والتّكبير ناتجان عن الاستعمال ولا يمكن التكلّم عنهما خارج ذلك النّطاق.

ولم يكن تصنيف القدامى للمعارف حسب دورها في الرّبط النصّي، حيث لا تسهم كلّ تلك المعارف في هذا الرّبط. فالمعارف التي لا تسهم في الرّبط النصّي هي:

- اسم العلم؛

- المعرف بـ (ال) الجنسية أو (ال) العهديّة عهداً حضورياً أو ذهنيّاً؛

- ضمائر المتكلّم والمخاطب؛

- اسم الإشارة بشرط أن يكون الإبهام قد رُفع عنه مقامياً.

والمعارف التي تسهم في الربط النصي هي: - المعرف ب (ال) العهدية عهداً ذكرياً؛

- ضمائر الغائب؛

- اسم الإشارة إذا كان الإبهام قد رُفع عنه مقالياً أي نصياً.

والملاحظ أنّ الضمير واسم الإشارة قد أدرجا تحت عنصر الإحالة، لذا سنقتصر على الكلام عن (ال) التعريف، وعن ذلك يقول سيبويه « وأما الألف واللام فنحو الرجل والفرس والبعير وما أشبه ذلك. وإنما صار معرفة لأنك أردت بالألف واللام الشيء بعينه دون سائر أمته، لأنك قلت: مررت برجل، فإنك إنما زعمت أنك إنما مررت بواحد ممن يقع عليه هذا الاسم، لا تريد رجلاً بعينه يعرفه المخاطب. وإذا أدخلت الألف واللام فإنما تذكّره رجلاً قد عرفه، فتقول: الرجل الذي من أمره كذا وكذا؛ ليتوهم الذي كان عهداً ما تذكر من أمره»¹⁶، وقد اعتبر النحاة التعريف بالألف واللام بمنزلة تقييد الفعل بالأدوات التي تدخل عليه، فيقول المبرد: أنّ (ال) التعريف: « بمنزلة سوف في الأفعال لأنك إذا قلت جاءني رجل فقد ذكرت منكورا فإذا أدخلت الألف واللام صار معرفة معهودا وإذا قلت زيد يأكل فأنت مبهم على السامع لا يدري أهو في حال أكل أم يوقع ذلك فيما يستقبل فإذا قلت سيأكل أو سوف يأكل فقد أبنت أنّه لما يستقبل¹⁷ » فأصبح الأمر عند السامع معرفة.

وقد قسم ابن هشام (ال) إلى ثلاثة أقسام: ال اسم موصول، ال حرف تعريف، و ال زائدة¹⁸. وما يهمنا هنا هو (ال) حرف تعريف، حيث تنقسم إلى عدة أقسام؛ وسنركز على ما له دور في الاتساق النصي منها، وهي (ال) العهدية عهداً ذكرياً: مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: 15-16]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التور: 35]؛ ف (ال) في (الرسول) في المثال الأول، و(ال) في (المصباح) في المثال الثاني هما (ال) التعريف العهدية عهداً ذكرياً؛ لأنّ كلمة (رسول) قد ذكرت في الكلام فعلاً، وكلمة (مصباح) كذلك والملاحظ أنّ كلمتي (الرسول) و(المصباح) قد أتيتا في درج الكلام لا في بدايته فكانت (ال) فيهما من روابط الجملة

بما سبق من الكلام. ونفس الشيء يقال على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا زَاوَا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: 11]، ف: "أل" في "اللهو" و "التجارة" جاءتا للعهد الذكري؛ لأن كلمتي "لهو" و "تجارة" قد ذكرتا في بداية الآية الكريمة. ويمكن تمييز العهد الذكري عن غيره بإمكان تعويضه بضير الغائب، فنقول: (أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه فرعون)، ونقول: (... فيها مصباح هو في زجاجة...)

وأما اللام «الداخلية» على المشار إليه والاسم بعد إذا الفجائية فقد تكون من العهد الحضوري كما قد تكون من العهد الذكري¹⁹ «كما عبّر عن ذلك محمد الشاوش، وعلى هذا تسهم اللام بعد إذا الفجائية واسم الإشارة في الربط النصي إذا قام مصحوبها على العهد الذكري».

هذا وقد غابت في النص (ال) العهدية عهدا ذكرياً وهي وحدها المساهمة في الربط النصي، دون (ال) العهدية عهدا حضورياً أو عهدا ذهنيّاً أو (ال) الجنسية.

يظهر ممّا سبق أنّ وسائل الاتّساق شكلية باعتبارها وسائل لفظية كالإحالة والاستبدال والتكرار والحذف لكنّها دلالية المضمون والمقصد؛ لأنّ الارتباط الدلالي داخل النص هو الهدف المنشود من استعمالها.

خاتمة: تتحقّق نصية النصّ إذا اجتمعت فيه سبعة معايير كما حدّدها ديسلروبوجراند ومنها الاتّساق الذي تعددت وسائله كما رأينا، وهي كلّها تؤدي وظيفتها الرابطة لتخرج النصّ متلاحماً كبنية كلية موحدة. وتختلف درجة وطريقة توظيف هذه الوسائل من كاتب إلى آخر ممّا يمكن أن يكون محطة للكلام عن الفروق الأسلوبية بين الكتاب. وإنّ وسائل الاتّساق المذكورة آنفاً قد أشار إليها الغربيون ووقف عندها الدارسون العرب دون النّظر إلى ما تميّز به اللّغة العربية وهو الإعراب، لذا يمكن لدراسات أخرى في هذا المجال أن تنطرق إلى دور الوظيفة النّحوية في تحقيق الاتّساق النصّي.

ملحق: النصّ المدروس (نص من كتاب "كلىة ودمنة" لعبد الله بن المقفّع، ط 17. القاهرة: 1937، المطبعة الأميرية ببولاق، من ص 301 إلى ص 303 (باب السائح والصائغ)).

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة. وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين

شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس البر والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حرمة، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذٍ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ولا يضعوه عند من لا يحتمله. ولا يقوم بشكره، ولا يصطنع أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره. ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريباً لقربته، إذا كان غير محتمل للصنعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورفدهم للبعيد، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه: لأنه يكون حينئذٍ عارفاً بحق ما اصطنع إليه مؤدياً لشكر ما أنعم عليه، محموداً بالنصح معروفاً بالخير، صدوقاً عارفاً، مؤثراً لحميد الفعال والقول. وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها، كان للمعروف موضعاً، ولتقريبه واصطناعه أهلاً: فإن الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر إلى مداواة المريض إلا بعد النظر إليه والجس لعروقه ومعرفة طبيعته وسبب علته، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته. فكذلك العاقل: لا ينبغي له أن يصطفي أحداً، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة: فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطراً في ذلك ومشرفاً منه على هلاك وفساد. ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله في طبائعه فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة. وربما حذر العاقل الناس ولم يأمن على نفسه أحداً منهم. وقد يأخذ ابن عرس فيدخله في كفه ويخرجه من الآخر، كالذي يحمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئاً انتفع به، ومطعمه منه. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم، ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم. وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة احتفروا ركية فوقع فيها رجل صائغ وحية وقرد وببر، ومر بهم رجل سائح فأشرف على الركية، فبصر بالرجل والحية والوبر والقرد ففكر في نفسه، وقال: لست أعمل لأخوتي عملاً أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء. فأخذ حبلاً وأدلاه إلى البئر فتعلق به القرد لخفته فخرج. ثم دلاه ثانية، فالتفت به الحية فخرجت. ثم دلاه ثالثاً فتعلق به الببر فأخرجه. فشكرن له صنيعه. وقلن له: لا تخرج هذا الرجل من الركية: فإنه ليس شيء أقل شكراً من الناس ثم هذا الرجل خاصة. ثم قال له القرد: إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها: نواذرخت. فقال له الببر: أنا أيضاً في أجمة إلى جانب تلك المدينة. قالت الحية: أنا أيضاً في سور تلك المدينة. فإن أنت مررت بنا يوماً من الدهر، واحتجت إلينا فصوت علينا حتى نأتيك فنجزيك بها أسديت إلينا من معروف. فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا له من قلة شكر الإنسان، وأدلى الحبل، فأخرج الصائغ، فسجد له، وقال

له: لقد أوليتني معروفاً. فإن أتيت يوماً من الدهر لمدينة نواذرخت فاسأل عن منزلي: فأنا رجل صائغ لعلّي أكافئك بما صنعت إلي من معروف. فانطلق إلى مدينته وانطلق السائح إلى جانبه. فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له الحاجة إلى تلك المدينة، فانطلق، فاستقبله القرد، فسجد له وقبّل رجله. واعتذر إليه، وقال: إن القرد لا يملكون شيئاً، ولكن اقعد حتى آتيك. وانطلق القرد، وآتاه بفاكهة طيبة، فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته. ثم إن السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة فاستقبله البير، فخرّ له ساجداً وقال له: إنك قد أوليتني معروفاً. فاطمئن ساعة حتى آتيك. فانطلق البير فدخل في بعض الحيطان إلى بنت الملك فقتلها، وأخذ حليها، فأتاه بها، من غير أن يعلم السائح من أين هو. فقال في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء، فكيف لو قد أتيت إلى الصائغ فإنه إن كان معسراً لا يملك شيئاً فسيبيع هذا الحلي فيستوفي ثمنه. فيعطيني بعضه، ويأخذ بعضه، وهو أعرف بثمنه. فانطلق السائح فأتى إلى الصائغ. فلما رآه رحب به وأدخله إلى بيته. فلما بصر بالحلي معه، عرفه وكان هو الذي صاغه لابنة الملك. فقال للسائح: اطمئن حتى آتيك بطعام فلست أرضى لك ما في البيت. ثم خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتي: أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك، فتحسن منزلتي عنده. فانطلق إلى باب الملك، فأرسل إليه: إن الذي قتل ابنتك وأخذ حليها عندي. فأرسل الملك وأتى بالسائح فلما نظر الحلي معه لم يمهله، وأمر به أن يعذب ويطاف به في المدينة، ويصلب. فلما فعلوا به ذلك جعل السائح يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أنني أطعت القرد والحية والبير فيما أمرني به وأخبرني من قلة شكر الإنسان لم يصّر أمرى إلى هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول. فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها فعرفته، فاشتد عليه أمره، فجعلت تحتال في خلاصه. فانطلقت حتى لدغت ابن الملك، فدعى الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئاً. ثم مضت الحية إلى أخت لها من الجن، فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف، وما وقع فيه. فرقته له، وانطلقت إلى ابن الملك، وتخايلت له. وقالت له: إنك لا تبرأ حتى يريقك هذا الرجل الذي قد عاقبتموه ظلماً. وانطلقت الحية إلى السائح فدخلت عليه السجن، وقالت له: هذا الذي كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان: ولم تطعني. وأنته بورق ينفع من سبها. وقالت له: إذا جاءوا بك لترقي ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق: فإنه يبرأ. وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه: فإنك تنجوا إن شاء الله تعالى. وإن ابن الملك أخبر الملك أنه سمع قائلاً يقول: إنك لن تبرأ حتى يريقك هذا السائح الذي حبس ظلماً. فدعا الملك السائح، وأمره أن يريق ولده. فقال: لا أحسن الرقي، ولكن اسقه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى. فسقاها فبرئ الغلام. وفرح الملك بذلك: وسأله عن قصته، فأخبره.

فشكره الملك، وأعطاه عطية حسنة، وأمر بالصائع أن يصلب. فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح. ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصائع بالسائح، وكفره له بعد استنقاذه إياه، وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إياه، عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا لها في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه.

الهوامش:

*- ينظر: الملحق.

- 1- إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، معجم ديوان العرب، تح: أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، دط، القاهرة، 2003، ج 3، ص 280.
- 2- محمد الخطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1991، ص5.
- 3- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، المؤسسة العربية للتوزيع، دط، تونس، 2001، ج 1، ص ص 108، 109.
- 4- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، دط، القاهرة، 2000، ص 175.
- 5- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط2، القاهرة، 2007، ص 246.
- 6- عثمان أبو زنيد، نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2010، ص 110.
- 7- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج 1، ص 130.
- 8- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، ط3، القاهرة، 1992، ج 1، ص 146.
- 9- عثمان أبو الفتح بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصر، 1987، ج 1، ص 84.
- 10- عثمان أبو زنيد، نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، ص 132.
- 11- ع / عثمان محمد أحمد أبو صيني، نحو النص، دراسة تطبيقية على سورة التور، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2015، ص 35.
- 12- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ج 1، ص 153.
- 13- عثمان أبو زنيد، نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، ص 140.
- 14- محمد بن عزيز السجستاني، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، دار قتيبة، ط1، سوريا، 1995، ص 146.
- 15- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج 2، ص 1008.

- 16- عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988، ج2، ص5.
- 17- محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، ط1، بيروت، دت، ص83.
- 18- ينظر، عبد الله بن يوسف بن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار الفكر، ط6، دمشق: 1985.
- 19- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج2، ص1025.

مصادر ومراجع البحث:

- 1- إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، معجم ديوان العرب، تح: أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 2003، ج3.
- 2- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط2، القاهرة، 2007.
- 3- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2000.
- 4- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، ط3، القاهرة، 1992، ج1.
- 5- عبد الله بن يوسف بن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار الفكر، ط6، دمشق: 1985.
- 6- عثمان أبو الفتح بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي التجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصر، 1987، ج1.
- 7- عثمان أبو زيد، نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2010.
- 8- عثمان محمد أحمد أبو صيني، نحو النص، دراسة تطبيقية على سورة التور، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2015.
- 9- عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988.
- 10- محمد الخطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1991.
- 11- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، تونس، 2001، ج1.
- 12- محمد بن عزيز السجستاني، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، دار قتيبية، ط1، سوريا، 1995.
- 13- محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، ط1، بيروت، دت.